# ملحمة «ثورة الجحيم» فی شعر جمیل صدقی الزهاوی

صمد سلیمانی*
رحمت الله حیدری منش**
حسن بهادری***

تاریخ الوصول: ۱۳۹۰/۱۰/٦هـ ش
تاریخ القبول: ۱۳۹۰/۱۱/۱۸هـ ش



**الملخص**

تعبــر الملحمة من أقدم الأنواع الشــعرية عند الأمــم القديمة، ومن أغنى الآداب العالمية. و كما نعلم إن الأدب العربی المعاصر من أغنى الآداب فی فن الملحمة، وأشهرها؛ وكثير من الأدباء المعاصرين ومنهم الشعراء اهتموا بالشعر الملحمی. يعتبر جميل صدقی الزهاوی أحد أكبر شعراء الشعر الملحمی، ومن أشــهر الشعراء المعاصرين. إن لدراسة الشعر الملحمی الذی هو من أروع فنون الأدب، و أغناها، و أقدمها أهمية كبيرة. و حيث ندرس الشــعر الملحمی، نری فيه قصة البطولات و الأساطير.

لدراسة الملحمة فی ديوان جميل صدقی الزهاوی أهمية كبيرة. و ملحمة "ثورة الجحيم" من أحســن الملاحم الشــعرية فی الأدب العربی المعاصر لأنها ملحمة تتناول المسائل الأدبية، و التاريخية، و الدينية، و السياسية، و الأخلاقية، و الأســاطيرية فی المجتمع. و يجعل أمام القاری و الســامع قدوة أساطيرية، و بطلا خياليا، أو واقعيا. و هی ملحمة لم يهتموا بها، و من هذا المنطلق يتصدی هذا المقال لدراستها.

**الكلمــات الدليلية:** الملحمة، الشــعر الملحمی، ثورة جهنمية، أســاطير الجحيم، الدين، جميل صدقی الزهاوی.

*. خريج جامعة تربيت معلم فی طهران، إيران.
**. خريج جامعة تربيت معلم فی طهران، إيران. RAHMAT.MANESH@GMAIL.COM
***. خريج جامعة تربيت معلم فی سبزوار، إيران.

**المقدمة**

تعــد المحمة من أقدم الأنواع الشــعرية وأعرفها منذ أقــدم العصور عند الأمم القديمة. وهی شــعر تاريخ البطولات الأسطورية والحربية عند الأمم. لأن الشعوب البدائية عاشــت فی جو مســحور، ولابد أن تكون للملحمة صدی فی تاريخ أمة، أو أثرا فی حياة شــعب. يظهر مما وصل إلينا من الشعر الملحمی، أنه أقدم الشعر الذی ثبت تدوينه قبل غيره.

والملحمة عبارة من قصة شــعرية بطولية قوميــة تقوم على خوارق العادات و الأمــور. و تخلط فيها الحقائق بالأســاطير، وتغلل القصائــد الدينية و الروحية فی جوانبها.فالملحمــة تمثل الجوانب القومية، بمــا تحويه من عناصر هامة فی حياة الشــعوب، من حيث الجوانب الدينية، والفكرية، والاجتماعية؛ كما تمثل الأنظمة السياســية، و الاقتصادية، و الحربية. و ما تحويه من تصوير الجهاد القوی للشعب، و إبراز العناصر البطولية لدی زعمائه.

إن قيمــة الملحمة الشــعرية، تحرک التاريــخ فی الوجدان الشــعبی الأدبی من خلال الفكرة التی يســتحبها الشــاعر من قضايا التاريــخ، ليوظفها فی حركة المستقبل فی عملية توعية و رصد و إثارة، ليربط المستقبل بالماضی على أساس الفكــرة و الشــعور و الهدف الكبير. و من الطبعی أن قيمــة أية ملحمة تتحد من خلال الموضوع الذی تدور الملحمة حوله.

حيث ندرس الشــعر الملحمی، حقيقة نری فيها الشــعر وقصه البطولات وهنا كانا من أغنی فنون الأدب فی تاريخ البشــر كله من البداية حتی الآن. إن دراسة ملحمة الزهاوی دراســة شــاملة فی الواقع ستكشــف آفاقا جديــدا. يقول أمين الريحانی: «...و تســتحق أن تخصص لها الدرســات، فليس من الســهل أو العدل استعراض كافة جوانبها فی عمل غير مستقل... .» (مسوح، ۲۰۰۹م: ۱۳)

يهدف هذا المقال إلی ۱. تحديد مفهوم الملحمة الشعرية. ۲. نظرة فی الأدب العربی فی عصور الجاهلی والعباســی. ۳. خلفية الشعر الملحمی فی الأدب العربی المعاصر. ٤. و عرض تصوير واضح للشعر الملحمی "ثورة جهنمية" للزهاوی دراسة و شرح و تحليل.

**ما هی الملحمة؟**

الملحمــة: «القصصية الطويلة التی تحکی أعمــال البطولة لبطل رئيس واحد وکثيــراً ما يکون لها مغزی قومی واضح، بينما تســتخدم کلمة ملحمة للإشــارة إلی ما هو بطولی، وقد يتجاوز قدرات البشــر، ويجمع الروعة، والعظمة، والجلال.» (ترحينــی، ۱۹۹۵م: ۲۲۳) «ويحتوی علی أفعال عجيبة، وحوادث خارقة للعادة، ومن أهم عناصرها الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب وعنصر الحکاية. وهــو العنصر الأهم فيه، مع الاســتطراد والعناية بالحــوادث العارضة. بما تفترق الملحمة فيه عن القصة والمسرحية افتراقا کبيرا، وهذا الشعر يقص أنباء المعارک والبطــولات والأبطال، علی نحو ســاذج، خال مــن التعقيدات العقليــة والفنية.» (خفاجــی، ۱۹۹۲م: ٤٧٦) ويلعب الخيال فيها دورا کبيرا.و«أعمال البطوله لبطل رئيس واحد وکثيرا مايکون لها مغزی قومی واضح.» (المصدر نفسه: ۲۰)

«فکل قصيدة تقص قصة يکون الغرض الظاهر منها حکاية، هذه القصة تسمی شــعرا قصصيا، فإذا کانت القصيدة أو القصائد القصصية تناول الرجال المشهورين والأعمال المشهورة فی التاريخ فتلک ملحمة. أما الشاعر القصصی قديطوف بحياته حادث من الحوادث تنفعل به نفسه، وتتجاوب له مشاعره، ويهتز إحساسه فيعمد إلی تصوير هذا الحادث کما تمثل لديه فی قصة، نســج خيوطها ويرســم ألوانها ويطرز حوايشها.» (خفاجی، ۱۹۹۲م: ۹۰)

«الشــعر المحلمی بطبيعته شــعر جماعی، يصور عادات العشوب ومعتقداتها وأســطيرها وآلهتها. کما سجل حياتها مما حفز إلی حفظه وروايته وتناقله کمرآة الماضی للشــعوب التی تعی ما فيها، وتحرص عليه وتعتز به فی مواجهة الشــعر.» (بوملحم، ۱۹۷۰م: ۲۸) «وفی الملاحم، يتغنی الشــعب بآماله ومثله العليا، عرضا لعقائده ونزعاته.» (غنيمی هلال، لاتا: ١٤٦)

**الملاحم فی العالم**

ازدهرت الملحمة فی العصور البدائية للأمم، حيث يغلب الخيال، و تکثر الأساطير، و تزدوج الحکايات و التاريخ.و من أهم الملاحم القديمة فی الأدب العالمی:

۱. «الإليــاذة: فــی الأدب اليونانی القديم ملحمة شــعرية، نظمها هوميروس،

وموضــوع الإليــاذة. غضب أخيليوس لما لحقه من إهانــه على يدى "أجاممنون" القائد العالم اليونانى فى حصارهم طرواده.» (خفاجى، ١٩٩٢م: ٤٧٧)

٢. «الاوســاد: وهى الملحمة الثانية لهوميروس وموضوعها عودة "أودســيوس هوديوليس" من حرب طرواده بعد انتهائها بعشر سنين.» (المصدر نفسه: ٤٧٧)

٣. «الانياذة: نظمها الشاعر اللاتينى فرجيل (٨٩-١٩ق.م)، وقدنظمها فى أواخر حياته ... و الملحمة، ملحمة وطنية فيها إشــاده بأصــل الإمبراطورية الرومانية.» (المصدر نفسه: ٤٧٧-٤٧٨)

٤. الكوميديــا الإلهيــه لدانتــى: (٣٣١م) وهى دوّن فى مائة نشــيد فى وصف الحجيم والمطهر والجنة فى ثلاث مجلدات.» (المصدر نفسه: ٤٧٨)

٥. «رســاله الغفران: كتبها أبوالعلاء المعــرى (٣٦٣ – ٤٤٩ق) فى نهاية الربع الأول مــن القرن الخامس الهجرى، وهى رد على رســالة بعث بها ابن القارح إليه وفيهــا نجد أبا العــلاء يطوف بمصاحبه فى أرجاء العالم الآخــر، فى رحله خيالية ممتعة.» (عبدالرحمان، ١٩٩٨م: ٢٣١)

٦. «الفردوس المفقود: لملتون (١٦٠٨-١٦٧٤م) وقد نشرت عام ١٦٦٧م فى ١٢ نشــيدا، وتصور خروج آدم من الجنة، بعد إغراء الشــيطان له. لهذه الملحمة طابع دينى.» (خفاجى، ١٩٩٢م: ٤٧٨)

٧. «ملحمــة المهابارتا الهندية: فى مائتى ألف بيت، نظمها قياســة أحد كهان الهنود فى الحروب بين شعوب الهند.» (المصدر نفسه: ٤٧٩)

٨. «وقد وجد عند الفرس ملحمة طويلة وهى الشاهنامة لفردوسى: تدور حول تاريخ الأكاســرة و وصــف الحرب بين أهل إيران و أهل طوران نظمها فردوســى (٣٢٩-٤١١ق).» (المصدر نفسه: ٤٧٩)

٩. «رســالة التوابع والزوابع: لأبى عامر بن شــهيد الأندلســى القرطبى (٣٨٢-٤٢٦ق) لقــد ظهرت فى صدر القرن الخامــس الهجرى. و وصلتنا فصول منها عن طريق كتاب "الذخيرة فى محاســن أهل الجزيرة"، لأبى الحســن على بن بســام (ت٥٤٢ق) استطاع الشاعر من خلالها طرح آرائه الشعرية و الأدبية و العقلية، رسم من خلال صورة فكهه و نوادره بعضا من ملامح المجتمع الأندلس فى عصره.»

١٠. «جلجامش: هى قصة شعرية طويلة مدونة بالخط المسمارى و اللغة البابلية

و السومرية على اثنى عشر رقيما أو لوحا من الطين.» (ترحينى، ۱۹۹۵م: ۲۳)

**الملاحم فی الأدب العربی القدیم**

«لــم يعرف الأدب العربى الملاحم بصورتها الفنية هذه، ولكن الأدب الشــعبى خلق ملاحم شــعبية.» (خفاجى، ۱۹۹۲م: ٤٨) «تكاد تجمع الدرسات أن الشرق مهــد الإنســان الأول وموئل الحضــارة ومهبط الوحــى والإلهــام و تعتبر ملحمة جلجامش أقــدم نموذج فى تاريخ الحضارات جميعــا.» (ترحينى، ۱۹۹۵م: ۲۳) «فالعرب كانوا يجهلون الملحمة كفن شعرى مستقل، وقد ظلوا يجهلونها إلى أن ترجم البستانى (۱۸٦٥-۱۹۲۵م) هوميروس إلى العربية.» (المصدر نفسه: ۷۰) و بالرغم من ذلک فإن الشعر الجاهلى لم يخل من مظاهر ملحمية، و نرى فى الشعر الجاهلى شــعر الملحمة عند عمرو بن كلثوم و عنترة بن شداد، ولم يعرف العرب الملحمة المكتملة فى العهد الإسلامى الأول ولكن مظاهر ملحمية برزت فى شعر الخوارج كشــعر قطرى بن الفجاءة (٦۹۷م) و فى العصر العباسى نرى قصيدة أبى تمــام فى وصف المعتصم فى العمورية و كذلك نجد العنصر الملحمى فى قصيدة المتنبى فى وصف سيف الدولة.» (نفس المصدر: ۷۰-۷۳)

**مطلعها:**

على قدر أهل العزم تأتى العزائم  وتأتى على قدر الكرام المكارم

(المتنبى، لاتا: ۳۵۲)

خلفية الشعر الملحمى فى الأدب العربى المعاصر

فى العصر الحديث يعتبر ســليمان البســتانى أول من اهتم بالشعر الملحمى المتكامل، حين ترجم إليــاذة هوميروس إلى العربية. و فى مقدمة ترجمته تكلم عن الملحمة و... و بعد البســتانى قام أحمد محــرم (۱۸۷۷-۱۹٤۵م) بإثراء هذا اللون، فكتب "الإياذة الإســلامية" مســتمدا أحداثها من كفاح النبى محمدﷺ و نضاله فى ســبيل نشر الدعوة الإسلامية. ثم جاء «بولس سلامة فنظم ملحمتى "عيد الغديــر وعيد الرياض"، و اليوم مازالت جهود المحدثين تتوالى فى ســبيل إنشــاء ملحمة إســلامية. منها الجهود التى يبذلها الشاعر المعاصر سعيد عسيلى

صاحب مولد النور وملاحم الطالبية.» (ترحینی، ۱۹۹۵م: ۷٤-۷۵) و کتب فوزی معلوف سنة (۱۸۹۹- ۱۹۲۰م) بساط الریح فی ۲۲۵ بیت، أربعة عشر نشیدا کل فی موضوع.

**"ثورة جهنمية" للزهاوی**

تتوج أعمال الشاعر و الفیلسوف الحکیم جمیل صدقی الزهاوی ملحمته الشعریة الخالدة ثورة أهل الجحیم، ملهاة حواریة، شعریة، فلسفیة واجتماعیة، ألفها وهو فی بدایة العقد السابع سنة ۱۹۲۹م، یعرض فیها رؤاه، و فلسفته، و نظرته للحیاة، وأدبها، والناس، ومعتقداتهم من خلال سجل زیارته للجحیم، و النعیم علی طریقة أبی العلاء المعری فی "رسالة الغفران" ودانتی فی "الکومیدیا الإلهیة" و"التوابع والزوابع" لابن الشهید الأندلسی.

تقع هذه القصیدة فی ۳٤۵ بیتا نظمها علی وزن واحد و قافیة واحدة. هذه القصیدة طریفة، فلیست هی قصة اجتماعیة بحتة. والباحثة عزیزة مریدن عدّت هذه القصیدة من القصص الشعریة الاجتماعیة الطویلة. (مریدن، ۱۹۸٤م: ۵۱۱)

أمّا بعض الباحثین قد سمی القصة "ملحمة". (أبوسعد، ۱۹۵۰م: ۵۱) لما نشر الزهاوی هذه القصیدة أنّ الناقمین رفعوا الأمر إلی الملک فیصل الأول صاح قائلا: «أنا فی القرن الرابع عشر الهجری، وفی صغری کانوا یسمّوننی المجنون و فی شیخوختی یسمّوننی الفیلسوف و الزندیق.» (فهمی، لاتا: ۲۲٤)

أما فی القصیدة قال: «یا سیدی الأمیر وماذا تخشی من شاعر بلغ من السنین عتیا وحاربته الأیام وتکاثرت حوله الأعداء، فانفعل انفعال الشعراء، ولکنّه عجز أن یضرم الثورة فی الأرض فاضرمها فی السماء.» (نفس المصدر: ۲۲٤)

الشاعر قسم قصیدته إلی أربعة وعشرین مقطوعة هی:

۱. نکیر ومنکر فی القبر
۲. حوار بین الملکین والمیت
۳. مصارحة المیت
٤. وصف الصراط
۵. السؤال عن الملائکة والشیاطین وأجوبة المیت
٦. السفور والحجاب
۷. السؤال عن الله
۸. إلقاء الحجة
۹. اختلاف فی اسم الله
۱۰. امتناع المیت عن الجواب
۱۱. لا حریة فی القبر
۱۲. الثورة علی الملکین

١٣. عذاب القبر ١٤. الجنة ووصفها
١٥. الجحيم ووصفها ١٦. الحب فی الجحيم
١٧. الشعراء فی الجحيم وعمر الخيام ١٨. سقراط يلقی محاظرة فی الجحيم
١٩. منصور الحلاج فی الجحيم ٢٠. الثورة فی الجحيم
٢١. المعری ينشد نشيد الثورة ويردّد له الجمهور ٢٢. الحرب فی الجحيم
٢٢. انتصار أهل الجحيم ٢٤. الخاتمة

(سعيد، لاتا: ١٠٧-١٣٣)

تدور أحداث الملحمة بعد انتقال الزهاوی إلی عالم الموت، وهناک فی القبر يلتقی ملکی السؤال نکيرا ومنکرا بمنظرهما المهول. ويدور بينهم حوار طويل حول قضايا الدين والاعتقاد فی الدنيا. يظهر الشاعر فيه السخرية والتهکم من هذه المعتقدات. مما يدفع الملکين إلی نقله فی الجحيم ليقاسی العذاب الأليم. وهنا يبدأ قسم آخر يلتقی فيه الشاعر رجال علم، و أدب، و فن، و فکر، و سياسة فی الجحيم، و يحاورهم و يتحدث إليهم ويساهم فی التحريض علی الثورة التی تنشب نارها بين سکان الجحيم و ملائکة العذاب، لتنتهی بانتصار قوی الجحيم علی الملائکة و ينتهی معها الحلم.

يبدأ الزهاوی ملحمته بالرحلة الخيالية من عالم الأحياء إلی عالم الأموات، وهناک فی القبر (أول منازل الآخرة) يلتقی الشاعر منکرا ونکيرا، فيصف منظرهما بشیء من المبالغة والتهويل لإظهار هول الوقف. فالقبر ليس فيه ما يونس، وکانا فظين غليظين معه فی المعاملة. ثم يبدان بسؤالهما عن بعض القضايا التی کان يؤمن بها من کان حيا کالإسلام، والتفسير، والتخيير، والشعر، والفن. غير أنّ الشاعر يغرف بالسؤال، إذ يظهر تبرمه من أسئلة الملائکة المتعلقة بالدين وعندما يلحقان عليه بالسؤال يتبرم بهما، ويشکو ويئنّ ثم يفصح عن مذهبه الذی عاش عليه ويتلخّص فی قوله.

غير أنّی أجلّ ربّی من إتـ ـيان ما يأباهُ الحجا والضميرُ

(سعيد، لاتا: ١١١)

وعندما يستفيق الشاعر علی حرّ شمس الضحی، وإذا به کان فی حلم أثاره

الجرجير. ويقول:

وتَنَبّهــت مــن منامــی صبحاً  وإذا الشــمس فی السماء تنبرُ
وإذا الأمــر ليس فــی الحقّ إلا  حلمــا  أثــارهُ  الجرجيــرُ
(المصدر نفسه: ١٣٤)

و بهذا تنتهی أمنية، كانت تعيش فی خلد الزهاوی يعرض فيها، بكل من يريد من رموز تدّعی الدين و التقوی، ذاهبا من رؤيته إلی أبعد أشــكال الرمز الشعری حين يدفع بثورة الوســاء فی دنيا الخيال إلی تحطيم كل أشكال القهر و الحرمان فی الأرض. هو الذی يقول عنها فی رده علی الملک فيصل «ماذا تخشی من شاعر بلغ من السنين ولكنه أعجز من أن يضرم الثورة فی الأرض فاضرمها فی السماء.» (فهمی، لاتا: ٢٢٤)

و قد كتب فيه طه حســين: «لم يكن الزهاوی شاعر العربية فحسب. لقد كان أعر العقل.. و كان نعری هذا العصر.» (مسوح، لاتا: ١٠٧)

كما تلمــس موقفه من الحيــاة الاجتماعية فی عصره ولاســيما قضايا المرأة والتــزام النضــال فی الحياة الكريمــة، و غيرها من القيــم الاجتماعية التی بدأت المجتمعات تفقدها فی ظل الحكومات الرازحة تحت الاستعمار.

الدافع من الرحلةً الخيالية فی ملحمة الزهاوی

مــاذا يريــد هذا الرجل؟ وما معنی ثــورة أهل الجحيم علی الســذج من أهل الجنة؟ أيقصد ثورة البائسين علی الأغنياء المنعمين، و انتصارهم عليهم؟ أم يصوّر تصويراً خيالياً ثورة فی السماء؟

لم يكن الشعر بمنأی عن قضايا عصرهم و واقعهم، بل عاشوا فی قضايا المجتمع. و دفعهم ظروفهم السياســية و الاجتماعية إلی التحليق بعيداً، و يركبون أجنحة الخيال فی ظل ظروفهم السياسية و الاجتماعية. فلذا أكبر الظن أنه يقصد المعنی الأول، وهو بذلک تثير الجماهير ضد الأوضاع السياســية. هو يقسم المجتمع إلی فئتين: حاكمة متسلطة غنية، تتجمع فی يديها الأموال والخيرات، وأخری فقيرة بائسة ليس لها من حظّ الأشّقاء، الألم والحسرة.

وهذه الأوضاع قددفعه إلی دافعه الذی أخرجه عن دنيا الواقع إلی عالم الخيال

لإضرام ثورة البؤساء ويبرز الدافع بوضوح فی الشعار الذی رددّة المعری أثناء قيام الثورة. فيقول:

**المعری:**

غصبــوا حقكــم يا قــوم ثوروا  إنّ غصب الحقــوق ظلم كبير

الجمهور:

غصبــوا حقنــا ولــم ينصفونــا  إنمــا نحــن للحقــوق نثــور

إن خضعتم فما لكم من نصيب  فی طــوال الدهور إلا الســعير

(سعيد، ۱۹۸۳م: ۱۳۱)

**محاكاة القدماء وإحياء التراث**

لــم تخل ملحمــة الزهاوی من الدوافع التقليدية والســير علــی نهج الأدباء و القدماء. والدافع الذی يمكن أن يتجلی فيه رغبة الزهاوی فی نظم ملحمة شعرية علی نمط رســالة الغفران، ليعرض فيها موقفه من الحياة والموت والحق والباطل والفساد والفضيلة والخير والشّــر، ولكن من وجهة دينية، قوامها الرؤية الإسلامية الصحيحة. وكما قال الدكتور فايز ترحينی: «ويبدو أن الشعر الملحمی أخذ بداياته الأولی من الأناشيد والتراتيل الدينية.» (ترحينی، ۱۹۹۵م: ٤٧)

وأضاف «عالم الملاحم يؤمن بالأســاطير والخرافات شرط أن يكون فی أسس الملحمة شــعور بالحق والعدالة وإكبار للفضيلة ومحافظــة علی التقاليد و... عالم الملاحم عالم حرّية فردية.» (المصدر نفسه: ۲۱)

**التأثر بالأساطير العربية القديمة**

الزهاوی إلی جانب اللغظة العربية حذق الفارســية و التركية و آدابهما، ترجم رباعيات الخيام نظما ونثرا إلی العربية. وقرأ الملاحم العربية القديمة مثل ملحمة عنترة و زهير و ملحمة جلجامش التی «تعتبر أقدم أنموذج من أدب الملاحم فی تاريخ الحضارات جميعا و هی بحق درّة النتاج الأدبی فی حضارة الشــرق عموما و بلاد الرافدين خصوصا.» (ترحينــی، ۱۹۹۵م: ۲۳) وقال حنّا الفاخوری: «موضوع ملحمة الزهاوی مســتقی من الكتب الدينية من أوصاف للجنة والنار، من رســالة

الغفران لأبی العلاء المعری، ثم من الکومیدیا الإلهیة لدانتی، ومن شـتی الروایات الشعبیة التی تناقلها الناس فی هذا الموضوع.» (الفاخوری، ۱۳۸۰ش: ٤٢٩)

«و هکذا استطاع شـعراء الملاحم أن یستفیدوا من تراثهم الأسطوری العربی خاصّة، وتوظیف هذا التراث فی التجربة الشـعریة، کما اسـتطاع بعضهم اختراق الأنماط الأسطوریة وخلق تجارب شعریة تحمل من ملامحها بعض سمات الفردی والجمعی.»

«الأسطورة کمصطلح تشیر أحیانا إلی أقاصیص الأقدمین علی اعتبار أنها الجزء القولی المصاحب للطقوس البدائیة، أحیانا تشـیر إلی أشکال الإیمان المختلفة.» (الورقی، ۱۹۸٤م: ١٤١)

علی أنّ الذی یعنینا من الأسـطورة هنا أنّها لیسـت مجرد نتاج بدائی یرتبط بمراحل ما قبل التاریخ أو بعصور التاریخ القدیمة فی حیاة الإنسان أو بالمجتمعات الأنثریولوجیة المعاصرة، و إنّما هی عامل جوهری و أساسی فی حیاة الإنسان فی کل عصر، و فی إطار أرقی الحضارات. (إسماعیل، ۱۹۹۸م: ١٤١)

کمـا نعلم کان الزهـاوی عالما باللغات العربیة والفارسـیة وآداب الترک، وقرأ آدابهم، و تأثر فی رؤیته وقرأ أسـاطیرهم. و لیس بعیدا أن قرأ الأساطیر الشرقیة القدیمة مثل أساطیر الهند و الفرس و... .

**التأثر بالقرآن االکریم**

لم یکن التأثر بالقرآن الکریم باقتباس الآیات فحسـب، و إنما أفاد من قصص القرآن الکریم و تصویره. و قد أغنی وصف القرآن الکریم للجنّة و النّار خیال شعراء الذین استعانوا بأوصافه لرسم صورة الجنّه والنّار، وفق رؤاهم الفکریة والنّفسیة.

«یهدف (الملحمة) تعظیم شعور جماعی دینی أو وطنی أو إنسانی.» (یعقوب، ۱۹۸۷م: ٣٧٤) والعنصـر الدینی من أرکان الملحمة، فالعلاقة بین الملحم والدین علاقة وثقی، و الملحمة ولیدة التفکیر الدینی.» (ترحینی، ۱۹۹۵م: ٢٢)

فقـد فصـل الله تعالی فی صورة النار بما فیها من أهـوال وأنکال وعذاب وفی درکاتها وأبوابها. ویقول الله تعالی: ﴿کَلَّا إِنَّهَا لَظَی نَزَّاعَةً لِلشَّوَی﴾ (المعارج: ١٥-١٦) ویقـول عزّوجلّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَـقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْـعَةَ عَشَرَ﴾

(المدثر: ۲۷-۳۰) ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ (الهمزة: ٥-٩)

وقد أفاد الزهاوی من أوصاف القرآن الكريم لجهنم حين وصف النار التی نقله إليها الملكان، فوصف ما فيها من طعام الزقوم وشراب اليحموم وشهيق جهنّم وزفيرها. فقال:

إنّها فی أعماقها طبَقاتٌ بعضُها تحتَ بعضِها محفورُ
وأشدّ العذاب ما كان فی الها وية السفلی حيث يطغی السعيرُ
حيثُ لاينصر الهضيم أخوه حيثُ لاينجدُ العشير العشير
ولقد يسقی الظامئون عسيراً هو من حنظلٍ وساءَ العصيرُ
ولها من بعد الزفير شهيق ولها من بعد الشهيق الزفيرُ
ولهم فيها كلُّ يومٍ عذابٌ ولهم فيها كل يوم ثبورُ

(سعيد، ۱۹۸۳م: ۱۲۳)

و فی نظرة لبعض الآيات نجد الزهاوی قد استقی معانی القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (الملک: ٤٣-٤٦)

**التأثر بالحديث النبوی الشريف**

ويأتی الحديث النبوی الشريف بعد القرآن الكريم أهمية فی إغناء مادّة بعض الأشعار ولاسيما الأشعار التی تتعلق بالدين وأمورها، وتمّ هذا الإغناء إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. لا شک أنّ الزهاوی قد تأثر بالأحاديث النبوية الشريفة فی أشعاره لأنّه قدنشأ فی أسرة دينية، كان والده مفتی بغداد فيتلقی العلوم الشرعية علی يده. وتأثر فيما بعد فی أشعاره. قد أخذ الزهاوی أكثر أوصافه منها فی ثورته الجهنمية من الحديث النبوی الشريف.

ولاسيما فی وصف الجنّة، إذ يقول:

جنّة عرضها السماوات والأرض بها من شتّی النّعيم الكثيرُ
فطعام الآكلين لذيذٌ شرابٌ للشاربين طهورُ

سـمک مقلـی وطیـر شـوی ولذیـذٌ مـن الشـواء الطیـورُ
ولقد یعطی المرءُ سبعین حورا علیهـنّ سـندسٌ وحریـرُ
(سعید، ۱۹۸۳م: ۱۲۰)

ولعـلّ نظرة إلی حدیث الإسـراء والمعراج، تقرّب لنا مـدی تأثر الزهاوی به. یقول الحدیث: «فأتی علی وادٍ فوجد ریحاً طیبة وریح مسـک وسمع صوتاً. فقال: یا جبرئیل، ما هذه الریح الطیبة الباردة. وما هذا المسـک، وما هذا الصوت؟ فقال: هـذا صوت الجنة تقول: یـا ربّ، آتنی بما وعدتنی. فقد کثر غرفی، واسـتبرقی، وسندسی، وحریری.»

**التأثر بالفلسفة العربیة**

«والزهاوی رجل النظر الفلسفی إلی الأمور، له من الطاقات الفکریة و التحلیلیة ما لیس لغیره من شـعراء العصر.» (الفاخوری،۱۳۸۰ش: ٤١٤) «و بسـبب إغراقه فی التأمّل و التحلیل مال إلی التشـاوم وسـوء الظن بالدهـر و بالناس. وهو تأثر بفلسـفة المعری. و یظهر شـکه بقدرة الدین و یجاهر بریبه فی أسس الاعتقادات الدینیة. ولایدین إلا بدین العقل، مثل المعری.» (المصدر نفسه: ٤١٤)

فیقول الزهاوی:

غیـر أنی ارتابُ فـی کل ما قد عجـز العقـل عنـه والتفکیـر
(سعید، ۱۹۸۳م: ۱۱۲)

یرددّ قول المعری:

کذب الظن لا إمام سوی العقل مشـیرا فـی صبحه والمسـاء
(ضیف، لاتا: ۳۹۱)

وأراد الزهاوی أن یعلی شـأن فلسـفة أبی العلاء المعـری فجعله فی مقدمة الشعراء المارقین فی جحیمه.

فیقول الزهاوی:

ثـمّ حیانـی أحمـد المتنبی والمعـری الشـیخ وهـو ضریر

وكلا الشـاعرين بحـر خضـم وكلا الشـاعرين فحـل كبيـر
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٦)

وليس شـك أن تقديم المعرى فی مقدمة الثائريـن يؤكد على دوره الريادی الذی تقوم به الفلسفة فی قيادة الثورة.

**التأثر بالفلسفة الغربية**

«لقد قرأ الزهاوی عن التركية كثيراً من آراء فلاسفة الغرب وعلمائه ثم الكوميديا الإلهية وديوانی فيكتور هوغو الفلسفيين "الله" و"نهاية الشيطان" ثم قرأ بإعجاب ما قرأ الفيلسوف التركی "رضا توفيق" عن أدب "عبد الحق حامد" الفيلسوف التركی الشهير.» و قد ضمن الزهاوی فی ملحمته أسماء بعض هؤلاء الفلاسفة:

ثم إنی سـمعت سـقراط يلقی طبقة فی الجحيـم وهی تفور
وإلـی جنبه علـی النـار أفلا طـون يصغـی كأنّـه مسـرور
وأرسـطاطاليس الكبيـر وقد أعرق منه المشاعر التفكير
والحكيم الكندی ثم ابن سـينا وابن رشـد وهو الحفی الجسور
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٧)

**الثقافة العلمية**

يتحـدث الزهاوی عن بعض الحقائق العلمية التی اشـتهرت بين علماء الفلك و الطبيعة «ليس الشعر عنده إذن لسان الجنس البشری، و إنما هو لسان العلم و خلاصة لقوانينه ونظر فی مبادئه و فی رقعة والسماء التی يستنبط.» (ضيف، ١٩٥١م: ٧٥) هو قد تأثر بمعطيات العلوم فی عصره حتی غلبت الروح العلمية على شعره.

فيقول:

قلت لله فی السـموات والأرض ومـا بينهـن خلـق كثيـر
غيـر أنی أرتاب فـی كل ما قد عجـز العقـل عنـه والتفكيـر
(سعيد، ١٩٨٣م: ١١٢)

ما لكل الأكوان إلا إله واحد لايزال وهو الأثير
(نفس المصدر: ١١٤)

فالأثير مصطلح علمی فيزيائی أتی فی شعره، و نری فی جحيمه معظم الشخصيات العلمية و الفكرية و الفلسفية فی العالم.

ثم كوبرنيک الذی كان قد أفهم أن الأرض جرم يدورُ:

تتبع الشمس أينما هی سارت وعليها مثل الفراش تطورُ
ثم دروين وهو من قال إنا نسل قرد قضت عليه الدهور
(نفس المصدر: ١٢٧)

**الدين**

«من أركان الملحمة، الأسلوب الملحمی الذی يجب أن يتميز بالقوّه والبطولة الرائعة و هذه يجب أن تشمل جميع النواحی جميع الحربية والاجتماعية و الدينية و الخلقية.» (ترحينی، ١٩٩٥م: ٢٢) أما «الدين عند الزهاوی خاضع للعقل، و هو لذلک مجرد من الخرافات، و مجرد من كل ما لايقبله العقل.» (الفاخوری، ١٣٨٠ش: ۴١٧)

غير أنی أرتابُ من كل ما قد عجزَ العقلُ والتفكيرُ
لم يكن فی الكتاب من خطأ كلا ولكن قد أخطأ التفسير
(سعيد، ١٩٨٣م: ١١٢)

**الله – جلّ جلاله –**

اضطرب الزهاوی بين الإيمان والإلحاد:

كان إيمانی فی شبابی جمّا ما به نزرةً ولا تقصيرُ
غيرَ أنّ الشكوک هبّت ثلاحينی فلم يستقرّ منی الشعورُ
ثم آمنت ثمّ ألحدتُ حتّی قيل هذا مذبذبٌ مغرورُ
وتعمّقت فی العقائد حتی قيل هذا علامةً نحريرُ
ثمّ إنی فی الوقت هذا لخوفی لست أدری ماذا اعتقادی الأخيرُ

«هذا هو القلق النفسی الذی رافق الزهاوی. وهو فی کل حال مؤمن بالله تعالی فی قرارة نفسه، ولکنه یرید فی إیمانه أن یستمد بالعقل، لایقبل منه بدیلا.» (سعید، ۱۹۸۳م: ۱۳٤)

**الموت (الرحلة الخیالیة)**

«شغلت الملحمة بموضوع أساسی، هو البرهان بأسلوب مؤثر علی حتمیة الموت. فهی تتناول مسألة کبری، شغلت تفکیر الإنسان منذ أقدم الأزمان.» (المصدر نفسه: ۱۰٦)

یرتبط الموت و الحیاة ارتباطا وثیقا بالعقیدة الدینیة فالموت طریق موصل إلی ساعة القیامة.

یقول الزهاوی:

بعد أن متّ واحتوانی الحفیرُ جاءنی منکر و نکیرُ
کنت فی رقدة بقبری إلی أن أیقظانی منها وعاد الشعور

**الروح والجسد**

«ینزع الزهاوی إلی تمجید العقل و إنکار کل ما عداه. بل الینه یکفر بالروح و یدعو إلی مادیة واضحة.» (سعید، ۱۹۸۳م: ۱۰٦)

فیقول:

غیر أنّی أرتابُ فی کلما قد عجز العقل عنه والتفکیر
(المصدر نفسه: ۱۱۲)

**الحوار**

أما الحوار فیبدو الدیالوج ذات الشکل المسرحی فی ملحمته، و «بلغ الشاعر ذروة الفن فی حواره الشعری.» (مسوح، ۲۰۰۹م: ۱۳)

یظهر الحوار فی غالبه مسهلا فی الحکایة و السرد، و «هو الشاعر المبدع الذی استطاع أن یطوع حواره للشعر و یحین استخدامه فیه حتی طغی الحوار علیها من أولها إلی آخرها حتی غدت قصّة حواریة ناجحة تنبض حیاة و قوة.» (سعید، ۱۹۸۳م:

١٣٤) حتی عدّت عزیزه مریدن هذه الملحمة قصة شعرية اجتماعية طويلة.

**النتيجة**

ثورة أهل الجحيم ملحمة الأدب الثورى فى القرن العشــرين و من أهم دوافع الزهــاوى فــى كتابتها الدافع السياســى والاجتماعى، والدوافــع الذاتية من أجل الحريــة والتقدّم الاجتماعى. أســهمت الثقافة الدينية فــى إغناء ملحمة الزهاوى بكل عناصرها الأساســية من القرآن الكريم، والحديث، والفلسفة الإسلامية. ونرى بوضــوح النصوص القرآنيــة فى رؤية الزهاوى.ونرى فيها بوضوح الفلســفة العربية القديمة بمادّتها الغنية فى إغناء ملحمته. كفلسفة المعرى ورؤيته عند الزهاوى.

أصبحت بعد رســلة الغفران الملحمة الشعرية الفلسفية الوحيدة باللغة العربية. استنادا إلى أدب العرب، و معتقداتهم بعد رسالة الغفران. و نرى فيها تأثره بالكمديا الإلهية لدانتى.ثورة أهــل الجحيم ملحمة قلبت المفاهيم وقوانين الجنّة والجهنّم رأسا على عقب فيها، وأهل العلم و الفلاسفة كلهم فى جهنّم و فى الختام انتصروا على أهل الجنّة بقيادة الشيطان.



پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی